

مسيرة الجابري من العقل إلى النقل

د. عبد الإله نبهان - أسبوعية النور السورية

من الفلسفة والتفكير إلى التعليق والتفسير، من الاستقراء والاستنباط والتنظير، إلى التلخيص والجمع والتقدير، من العقل المفكر إلى العقل المستقيل . إن مسيرته هذه صورة مصغرة عن مسيرة الحضارة العربية التي ازدهر فيها العقل حقة ثم انتكست في حبات النقل والتقليد والتكرار لا تعدوها لمئات السنين . بدأ الجابري باحثاً في التراث العربي (نحن والتراث) ثم تابع فيما سماه (العقل العربي) فبحث في تكوينه، فوجده يقوم على النظام المعرفي البياني، وأنه أنتج ما سماه

بـ (حضارة فقه)، ورأى أن اللغة العربية اليوم هي علي ما كانت عليه، إنها لغة الجاهلية، لغة الصحراء، لم يتغير فيها شيء ولم تتطور، وقد تسرب (اللا معقول العقلي = العقل المستقيل) إلى الثقافة العربية الإسلامية التي تسربت إليها (الهرمسية) وعقلها المستقيل، على الرغم من الصراع الفكري الذي قام في القرن الخامس الهجري بين المشرقيين (ابن سينا والبلخي...) وبين المغربيين (فلاسفة بغداد). ورأى الجابري أن ابن سينا (ت 428 هـ) يمثل لحظة انفجار تناقض العقل العربي مع نفسه، مع طموحه وخط سيره، لحظة برز فيها واضحاً عجز العقل العربي إلى عهده عن تحقيق قطيعة نهائية مع الهرمسية ونظامها المعرفي، نظام العقل المستقيل .

أما الغزالي (ت 505) الذي ردّ على ابن سينا في كتابه (تهافت الفلاسفة) وألف كتاباً في المنطق فإن ما كان يريده من المنطق، هو الجدل وليس البرهان. ورأى الجابري أن الغزالي قد تبنى في (تصوفه) الفلسفة الدينية الهرمسية بجميع أطروحاتها الأساسية. والخلاصة أن العقل المستقيل قد انتصر في الغزالي على كل نبضات عقله في الفقه والكلام. لقد انتصرت فيه الهرمسية الهاربة من الدنيا على الفقيه المتكلم المناضل من أجل الدنيا والدين .

وذهب الجابري إلى الضفة الأخرى، إلى الأندلس، حيث تختلف مكونات المجتمع عنها في بغداد، فلا معتزلة ولا باطنية ولا مانوية ولا...، ولا ضرورة لبروز صراعات فكرية مع أناس لا حضور لهم. وجسم ابن حزم (ت 456 هـ) بمذهبه الظاهري المشروع الإيديولوجي للدولة الأموية في الأندلس، وهو الذي سيغدو أساسه المعرفي أساساً للثقافة الأندلسية بمختلف فروعها، مما سيعطي الفكر العربي في الأندلس خصوصية متميزة. فقد رد ابن حزم على القائلين بالإلهام أو الكشف، ورفض الفكرة التي تقول بجواز صدق الخوارق والكرامات عن الأولياء، ورفض فكرة إمكان قلب الأعيان والطبائع من طرف السحرة.. ورأى الجابري أن ظاهرية ابن حزم كانت حبلية بالمشروع الرشدي ومثقلة بكل مضامينه العقلية والنقدية .

وفي هذه المرحلة برز ابن باجة الأندلسي (ت 47 هـ) الذي تحرك فكرياً في دائرة (البرهان) = (العقلانية) دونما اشتغال بنصرة البيان أو تأسيس العرفان. لقد كان خطابه يقوم على الدعوة إلى ترك التقليد والرجوع إلى الأصول، وهكذا تم فيما بعد على نحو حاسم إقصاء (العرفان) والفصل بين البيان والبرهان في الخطاب الرشدي، الذي استعاد مشروع ابن حزم عبر ابن تومرت وابن باجة ولكن على مستوى آخر أغنى وأعمق... لقد أعاد ابن رشد تأسيساً كاملاً للعلاقة بين البيان والبرهان على أساس نظرية واقعية عقلانية إلى الأمور، نظرية تعالج الواقع الديني والواقع الفلسفي بروح نقدية تحترم معطيات الواقع، ولكن دون أن تستسلم له أو يحتويها . ويرى الجابري أنها كانت بداية جديدة للفكر العربي، لكنها اختنقت في العالم العربي، كما أنها لم تستطع الاستمرار في الأندلس والمغرب، وذلك لانتصار العقل المستقيل، المتمثل بالفكر الصوفي، فكر ابن عربي والسهروردي . هذه العقلانية المستنيرة، عقلانية ابن رشد وجدت أرضها الخصبة في أوروبا، وكانت

من عوامل النهضة الفكرية فيها . وهكذا تابع الدكتور الجابري إنتاج كتبه الفكرية من تكوين العقل العربي إلى بنية العقل العربي إلى العقل السياسي العربي إلى العقل الأخلاقي العربي.. هذا المشروع الذي لم يكن نتيجة تخطيط مركز، بل كان نتيجة أفكار مفاجئة ينتج بعضها بعضاً.. وقد تعرضت هذه الكتب للنقد والنقيض، ورد عليها.. وتجاهل الجابري هذه الردود، وكانت ردوداً رصينة جادة تقوض مرتكزاته الفكرية، وكان جديراً به ومن أجل مصداقيته أن يناقش الدكتور جورج طرابيشي والدكتور طه عبد الرحمن والدكتور طيب تيزيني. ولكنه أعرض عن ذلك كله، وطلع علينا على نحو مفاجئ بكتاب مخالف لنسقه الفكري كل المخالفة، كان هذا الكتاب (مدخل إلى القرآن الكريم) الجزء الأول (في التعريف بالقرآن) وقد صدر هذا الكتاب عن مركز دراسات الوحدة العربية .

ونتأمل الكتاب بماذا يمكن أن يعرف الجابري بالقرآن بعد الذي كتب ويكتب عنه؟ لقد تحدث عن الوحي وإثبات النبوة، تحدث عن القراءات وعن انشقاق القمر، وعن جمع القرآن، وعن القصص في القرآن المكي ثم عن القصص في القرآن المدني. وتحدث عن إبراهيم وعن.. وكان حديثه عن ذلك حديث الناقل المكرر.. ووعده الجابري بإصدار الجزء الثاني (موضوعات في القرآن) ولكنه عدل عن ذلك، وأصدر كتاباً آخر في ثلاثة مجلدات سماه (فهم القرآن الكريم) (وهو تفسير مبني على أساس ترتيب النزول حسب زمانه ومكانه وعلاقته بمسيرة الدعوة الإسلامية .

وهدفه من ذلك إغناء المكتبة العربية التي تفتقر - حسب زعمه - إلى تفسير يستفيد في عملية الفهم من جميع التفاسير السابقة كما ذكر .

ونتأمل في كتاب (فهم القرآن الكريم) ونتساءل أتجاوز الجابري في طروحه تفسير المنار للأستاذ الإمام محمد عبده؟ كان كل ما فعله سريعاً، فترتيب الآيات حسب نزولها بعد أمراً منجزاً، والتعليق عليها بعد التقديم لها لا يكلف جهداً،

بدليل أن الرجل عندما أصدر الجزء الأول وعد بإصدار الثاني بعد شهرين، ولم يلبث الثالث أن صدر... أليس غريباً أن يصدر تفسير للقرآن في سنة واحدة من شباط 2008 إلى شباط 2009 أهني عملية تفكير أم عملية تسويق؟ !
وقد قرأت في الكتاب المذكور ما قرأت فلم أجد مسوغاً واحداً لمؤلفه أن ألفه

سوى الرغبة في التسويق. ولو أنه أخذ بعض الموضوعات القرآنية وناقشها ووضحها كما كان يريد أن يفعل في جزئه الثاني من المدخل لقلنا للرجل آراء يريد أن يدلي بها . أما أن يتنطع لتفسير القرآن ولا يأتي إلا بالمكرر، فهذا جهد يشكر له، ولكن عمله هذا ليس عمل مفكر فيلسوف، إنه عمل ناقل وملخص ومرتب لما سبق نقله وتلخيصه وترتيبه. وأظننا لسنا بحاجة إلى مفكر فيلسوف يكرر علينا ما قيل في صلح الحديبية وفي قصة الإفك وفي أسرى بدر وفي تجهيز جيش تبوك وفي غير ذلك من الموضوعات المنجزة التي قام بها علماءها الذين لا يسمون أنفسهم فلاسفة . وأعود قليلاً إلى فكر الجابري لأقول في القرن التاسع عشر وضع الفيلسوف الفرنسي رينان (ت 1892) حدوداً فكرية فاصلة بين ما سماه بالجنس الآري والجنس السامي، وكان الجنس الأول برأيه يملك كل عناصر الذكاء التفوق، أما الجنس الآخر - والمقصود به العرب - فهو جنس ضعيف الخيال قاصر عن الإبداع، فتخلف في التفكير .. وما إلى ذلك ..

وهذا ما فعله الجابري في كتبه الفكرية، فقد فصل بين المشرق العربي والمغرب العربي، وجعل للمغرب كل عناصر التفوق الفكري والاستنارة العقلية، أما المشرق فهو ظلامي ذو عقل مستقيل.. لذلك انبثقت الحضارة الأوربية من المغرب . وأنا الآن أستغرب أن تبني مركز دراسات الوحدة العربية مثل فكر الجابري وهو فكر مفرق، وقام بتسويقه، مع أنه ليس إلا صورة أخرى من تفكير رينان بعد أن تلاعب الجابري بمعطياته الأولى.. كان على المركز أن يتبنى الكتب التي ردت على الجابري ليعتدل ميزانه .

وهكذا انتهى الجابري في كتبه الفكرية إلى وضع أسس التفريق بين المشرق العربي والمغرب العربي مستضيئاً بفكر رينان، ثم انتقل إلى تفسير القرآن الحكيم، وفيه كرر ما قاله المفسرون، سوى بعض اختيارات لا قيمة فكرية لها، كذهابه إلى تحليل زواج المتعة للمضطر.. وما للجابري وهذه الفتوى؟! والإنسان حيث يضع نفسه .